(٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحو ترشيد الفهوم
بين
«خطاب إسلاميّة المعرفة والخطاب الإسلامي العام»

بقلم الدكتور طه جابر العلواني

من خصائص أمتنا:

إنّ للأمة الإسلاميّة ـ والشعب العربي بمثابة القلب منها ـ خصائص عديدة ، ومزايا متنوعة ، في مقدمة هذه الخصائص أنها:

١) أمة القراءة ، فقد بدأ تكوينها بكلمة «اقرأ» ، لا بكلمة «قاتل» أو «افتح» أو «اغز» هذا الشعب أو ذاك ، كانت البداية أمراً بالقراءة: «اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم» . (العلق: ١ـ٥) .

٢) الخاصية الثانية: إنّ «العمران الإسلامي» أو «الحضارة الإسلاميّة» التي صنعتها هذه الأمة حضارة كونيّة إنسانيّة عالميّة ، أسسها وبناها الكتاب الكريم مبيناً بسنّة وسيرة الرسول العظيم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا شيء آخر ، فإذا رثّت أو تقادم بها العهد ، أو طال على أهلها الأمد ، وقست منهم القلوب ، فإنّ المدخل إلى تجديدها وإصلاحها هو القراءة كذلك . فالقراءة منطلق التجديد ، كما كانت منطلق البناء والإنشاء .

وبذلك حددت مهمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقول الله ـ تعالى ـ: «هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» . (الجمعة: ٢) .

ودعوة سيدنا إبراهيم كانت: «ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنّك أنت العزيز الحكيم» . (البقرة: ١٢٩) .

وقال جل شأنه ممتنّاً على عباده المؤمنين: «لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» . (آل عمران: ١٦٤) .

وقال جلّ شأنه: «فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ...» . (الطلاق: ١٠-١١) .

وقال: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة» . (البينة: ١-٢) . ونفيت عنه صلى الله عليه وآله وسلم صفتا الجبريّة والتسلط فقال: «لست عليهم بمسيطر» . (الغاشية:٢٢) . «وما أنت عليهم بجبار» . (ق:٤٥) .

وليظهر دين الهدى ودين الحق على يديه بين الناس فيعم الهدى والسلام الأرض كلها ويدخل الناس في السلم كافة . كان من خصائص رسالته - صلى الله عليه وآله وسلم - العموم والشمول والعالميّة والربانيّة والتوازن والمنهجيّة المعرفيّة وغيرها .

٣» الخاصية الثالثة: من خواص هذه الأمة أنّها الأمة الجامعة الحافظة لتراث النبوات ، المؤتمنة عليه: «والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إنّ الله بعباده لخبير بصير . ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير» . (فاطر: ٣١-٣٢) .

٤» الخاصية الرابعة: - من خواصها - التوحيد الخالص ، فهذه الأمة تتفرد من بين سائر الأمم بالاحتفاظ بصورة نقيّة من التوحيد الخالص ، توحيد الألوهيّة وتوحيد الربوبية وتوحيد الصفات وهو التوحيد الشامل الذي جاء به الأنبياء كلهم ، وأنّ الإسلام - بمعناه العام المطلق - هو دين التوحيد

الذي جاء به جميع الأنبياء وسائر المرسلين ، وأنّه إذا كانت التحريفات والانحرافات قد غيّرت وحرّفت كثيراً من رسالات الأنبياء ، والتصورات الدينيّة السليمة التي جاؤا بها ، فإنّ الله ـ تعالى ـ قد تكفل بحفظ التراث التوحيديّ النبويّ كله في العقائد الإسلاميّة وأصولها ، وأودع سائر قواعدها في الكتاب المعجز الخالد ـ القرآن المجيد ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليبقى التوحيد معياراً وميزاناً قادراً على بيان الحدود والفواصل بين الألوهيّة ، والعبوديّة ـ فالألوهيّة ينفرد الله تعالى وحده بكل خصائصها ، والعبوديّة يتجرد الناس ، كل الناس فيها من خصائص الألوهيّة كلها ليكونوا عباداً لله ، متساوين في كل شيء بين يديه ، محررة قلوبهم وعقولهم من سائر المؤثرات الأخرى ، يدركون أنهم مستخلفون في هذا الوجود ليقوموا جميعاً ـ بمهمة لا تتم بدون علم ومعرفة ومنهج واستقامة وتوازن وعدالة وأمانة وشريعة وقراءة شاملة مستمرة للوحي والكون . وبذلك تصبح «العقيدة» قاعدة فكريّة كبرى ، منها تنطلق الرؤية الكاملة ، وعليها يقوم التصور الإسلامي الصحيح ، وبها يجاب عن «الأسئلة الكليّة» .

القيم الحاكمة:

إنّ في كل نسق معرفيّ وحضاريّ سلّماً تدرجيّاً للقيم ، وعلاقات رابطة محدّدة ، ففي النسق الليبراليّ تحتل «الحرية» موقع القيمة العليا الحاكمة التي تحدّد موقع ومفهوم أيّة قيمة أخرى تالية لها: فتأتي العدالة والمساواة ـ بعد ذلك ـ كقيم أدنى لا يمكن أن تتسامى لدرجة التناقض أو التصادم مع قيمة «الحريّة» .

وفي النسق المعرفيّ الشيوعيّ تحتل «المساواة» موقع القيمة العليا بدلاً من «الحرية» ، وتكون «الحريّة» ـ آنذاك ـ قيمة أدنى .

أما في النسق المعرفيّ الإسلاميّ فإنّ القيم العليا التي تحتل الموقع الأول هي قيم «التوحيد» و «التزكية» و «العمران» ، حيث إنّ قوام النسق وأساسه «تفاعل أو جدليّة بين الغيب والإنسان والطبيعة» . وكل القيم تندرج في هذه القيم الثلاثة المتحدة ، ومنها العدالة والحريّة والمساواة ، ومصالح الخلق من ضروريات وحاجيّات وتحسينيّات ومهمة «النظام المعرفي» أو «النسق المعرفيّ» لأيّة أمّة أن يبنى شخصيّة أبناء الأمّة: عقليّاً ونفسيّاً وفقاً لهذه القيم العليا ، أو المقاصد الأساسيّة الحاكمة .

وفي حالة أمتنا المسلمة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، حدد الخالق ـ تبارك وتعالى ـ غاية الخلق بعبادته والعبادة تقوم على التوحيد: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (الذاريات: ٥٦) . وحدد مهمتهم في الأرض كمستخلفين بإعمارها: «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» (هود: ٦١) . وحدّد صفات الإنسان المؤهل للعبادة والعمران بالصلاح: «إن الأرض يرثها عبادي الصالحون» . (الأنبياء: ١٠٦) . ولا صلاح بدون «التزكيّة»: «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» (الشمس: ٩).

وهذه القيم الثلاث العليا والحاكمة على ما عداها من قيم لا يمكن لأي نسق معرفيّ أن يحققها مالم يكن قائماً على «جمع بين قرائتين»: قراءة الوحي الإلهي في كتابه المنزل ، والصنع الإلهيّ في كتابه المخلوق ـ الكون . والانسان المكلف هو القاريء ـ في هذه الرسالة ـ بعد ختم النبوة وتوقف الوحي . فما هي حقيقة القرائتين التي تشكل مضمون «إسلاميّة المعرفة» وما حقيقة ما تريد بناءه وتحقيقه من: «نسق معرفيّ إسلامي» ، وكيف يمكن الجمع بينهما تسامياً إلى حالة الدمج بينهما ؟ .

مفهوم القراءتين :

إن القراءة التي ورد الأمر الإلهي بها قراءة محددة المعالم ، واضحة الاتجاه ، فإن الأمر قد ورد مرتين في الآيات الخمس الأولى نزولا وكان الأمر بقراءتين :

القراءة الأولى : قراءة باسم الله تعالى لهذا الوحي الذي سيتتابع نزوله حتى يتم قرآنا كريما مجيدا مكنونا ، مفصل الآيات تتلوه يا محمد على الناس وتبينه لهم ، ليتعلموا منه الحكمة والهداية والرشد فتزكوا نفوسهم ، وتطهر حياتهم ، وليهتدوا به في آداء مهام الاستخلاف ، والقيام بواجب الائتمان وحق العمران . وحين رد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه ليس بقارئ لاشك أنه فهم المطلوب ، وهو قراءة ما سيملى عليه ، «باسم ربّه» فكأنه قال له: إنك لن تكون وحدك في أداء هذا الفعل الذي لا تعرفه بل سيكون معك ربك الذي أعطاك الكثير وهو قادر على أن يعلمك كيفية أداء ما أمرك به ، ويزيد على ذلك كما علم آدم الأسماء كلها ، وكما علم إبراهيم وموسى وعيسى وسواهم من النبيين والمرسلين ، فاستعن به في القراءة يعنك ويصحبك ويكن معك فيها وفي بيانها

وتعليمها وإقامة الحجة بها على الناس .

وذكر الرب ـ جل شأنه ـ ووصفه بالخلق وذكر خلق الإنسان بالذات فيه تطمين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن منحه القدرة على القراءة ليس بالأمر الصعب على ربه الذي خلق كل شئ وخلق الإنسان من علق . كما أن في ذكر الخلق تهيئة لذهنه الرشيد ونفسه الشريفة ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبيان النوع الثاني من القراءة ، ألا وهي قراءة الخلق ودراسة الوجود فهما ـ إذن ـ كتابان تجب قراءتهما : كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن ، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون بدءا من الإنسان . ولابد من قراءتهما ـ معا ـ لتوجد المعرفة العمرانيّة الكاملة التي تمكن الإنسان من القيام بمهام الاستخلاف وأداء حق الأمانة ، والقيام بمقتضيات العمران . وهي معرفة لا تقوم على التلقي وحده بل على الأخذ عن الغير بالمراجعة والمطالعة وقراءة الكتب وكتابتها وتناقل الخبرات والمعارف بين البشر ، واستعمال القلم ـ الذي علم الله به وجعله وسيلة للمعرفة وتبادلها وإنمائها وتناقلها . ثم ما يمنّ الله ـ تعالى به من معارف تنقدح بها العقول من مستنبطات ومخترعات وغير ذلك مما يندرج تحت قول الله تعالى : «علم الإنسان ما لم يعلم» فهناك مصدران للمعرفة الإنسانية يتضافران في توصيل الإنسان إلى معارف الشهود الحضاري ، والقيام بمهام العمران والاستخلاف في هذا الكون ، ولابد من الجمع بينهما ، فيفهم القرآن العظيم ومدلولاته بالخلق وبالوجود ويفهم الكون ويهتدى في أداء مهام الخلافة فيه ، والقيام بمقتضيات الأمانة بالقرآن المجيد ونور هدايته ، ولكل منهما سنن وقواعد ، ومنهج وضوابط للقراءة فيه .

ولابد من قراءة المصدرين وتنفيذ الأمر بالقراءتين : قراءة الوحي النازل المتمثل بالكتاب الكريم المحدد لغاية الحق من الخلق ، المنبه على السنن الحاكمة لهذا الوجود ، الموضح للمنهج والشرعة ، والحقائق الأساسية . وقراءة كونيّة شاملة لآثار القدرة الإلهيّة ، وصفاتها وخلق الإنسان وسائر الظواهر الكونية ، وملاحظة ربوبية الباري جل شأنه وكرمه البالغ في خلق الإنسان واستخلافه ، وائتمانه على الكون ، وندبه لإعماره ، وتسخيره ، ولكن القرائتين لابد من جمعهما وبمنهجيّة خاصة «بالجمع بين القرائتين ذاته» .

والقرآن المجيد المكنون بهذه الآيات الكريمات وما يرتبط بها قدم في الماضي أنجح الحلول لأزمة الإنسان المعرفية في عصر التنزيل ، تلك الأزمة التي عرفت «بالجاهلية» وبالظلمات ، ولايزال ـ وحده ـ القادر على تقديم مفاتيح الحلول المعرفية لأزمة العالم المعرفية المعاصرة أو جاهلية القرن

العشرين الميلادي .

فبالجمع بين القراءتين ، وإخراج القلم الإنسانيّ الوضعيّ عن دائرة نزقه وطغيانه وربطه بالقراءة الأولى وهو ما كتب به : «ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون» (القلم : ١ ـ ٢) يسترد العلم والمعرفة من دوائر الاستلاب الوضعي ، فالرحمن هو الذي علم القرآن ، وخلق الإنسان ، وهو الذي علمه البيان .

وبذلك وضع الميزان وعهد إليكم «ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» (الرحمن : ٧ ـ ٩) . فهو الذي «أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» (النحل : ٧٨) ، فعلمه ـ وحده ـ العلم المحيط الكامل الشامل «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم» (البقرة : ٢٥٥) .

فهو سبحانه «قد أحاط بكل شئ علما» (الطلاق : ١٢) أما الناس فأكثرهم لا يعلمون وإذا علموا شيئا فإنهم «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (الروم : ٧) وبذلك فإن أزمة العالم المعرفية اليوم لا مخرج منها إلا منهجية القرآن المعرفية فلا نبي بعد محمد ولا كتاب بعد القرآن «ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا ، فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا» (الفرقان : ٥١ ـ ٥٢) .

ضرورة الجمع بين القرائتين:

فالقراءتان في الوحي وفي الكون فريضتان ، لأنهما أمران إلهيّان ، والجمع بينهما ضروريّ ، إذ بدونه يقع الخلل : فقد وقع في الخلل الذي تجاوز القراءة الأولى واستغرق استغراقا كليّا في القراءة الثانية التي تمثّل علم الكون أو فقد العلاقة بالله ، وتجاهل الغيب ، وانطلق بفلسفة وضعيّة منبتّة عوراء قاصرة في مصادرها ، تحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة ، وتعتبر الخالق والغيب كله مجرد ما ورائيّات أو ميتافيزيقا . وإذا كانت قوة غيبية قد مارست خلقا أو إيجادا فقد تكون مارسته بقوة الدفعة الأولى ، ثم تناسته أو نسيته ليستمر الكون بعد ذلك فاعلا ومنفعلا بشكل آلي كما ذهب إلى ذلك أرسطوفي القديم ونيوتن وغيره في الحديث ، وحين يحلو لبعض أصحاب هذه الفلسفة أن يتذكروا الباري جل شأنه فإنهم قد يتذكرونه ولكن بشكل حلوليّ

يزعم أن الله ـ تعالى ـ قد حل في قوى الطبيعة ذاتها وذاب فيها ليتحول إلى جزء حالّ فيها لينتهوا بعد ذلك إلى المادية الجدلية ـ التي أنكرت الخالق تماما وطرحت بدائل له من اتجاهات النمو عبر خصائص التطور المادي المعقد ليشعر الإنسان باندماجه الكامل بالطبيعة ككائن طبيعي ، وهنا يبدأ الإنسان الشعور بالغنى أو الاستغناء عن خالقه جل شأنه ، لأنه لم يعد يرى غير الطبيعة أمامه فهي كل شئ وهي وراء كل شئ . وهو في ظاهر الأمر قادر على قهرها: فلا يراها وهي مسخرة مقهورة بسنن الله تعالى بل يراها كونا مستقلا ذا امتداد غيبي ، وآنذاك لا يشعر أن الله تعالى قد سخرها له ، وأنه الخالق له ولها ، بل ربّما يرى أنه نفسه الفاعل المبدع المتعدد القدرات المسيطر على الطبيعة المفجر لكوامن ما فيها: فالكون مهيأ مسخر للإنسان ، والإنسان مزود بالقدرات التمكينية الذهنية والعقلية والعلمية التي تمكنه من تسخير الكون ليقوم بأمانة الاستخلاف ، وحين يغفل الإنسان أو يعشو عن ذكر الرحمن ولا يرى القدرة الإلهية في ذلك كله من خلال هداية الوحي يشده الشعور بالاستغناء ، والإحساس بالقدرة والإبداع إلى أن يجعل من علاقته بالكون علاقة تسلط وقهر وصراع ، وتفقد عناصر الطبيعة علاقتها الودية بالإنسان ، والإحساس بكونه المخلوق المستخلف المؤتمن ، وكونها المخلوقة المسخرة لهذا المؤتمن والمستخلف ، وكلاهما في المخلوقية والعبودية لله تعالى سواء «والله خلقكم وما تعملون» (الصافات : ٩٦) ، فيتخذ الوجود ـ آنذاك ـ شكل القوى المتصارعة المتنابذة ، ويتخذ الإنسان الغافل شكل المتأله المسيطر بالعلم على كل شئ فيمجد ذاته ويتخذ إلهه هواه ، يستمد قيمه من الطبيعة ، ويعطي للطبيعة من الأشكال ما يهوى ، وحتى الأديان تتحول عنده إلى شئ يوظف عندما تدعو الحاجة لسد ثغرة أو تلبية رغبة ، أو أداء خدمة ، وهنا يحق عليه القول : «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» (العلق : ٦) فيقع في الاستبداد والطغيان ، وتحدث كوارث البيئة ، ويظهر التلوث والفساد في البر والبحر والجو بما كسبت أيدي الناس ، ويختل التوازن ، وتظهر أمراض الانحراف والشذوذ في المعمورة ، فقارات يعمها الجوع والخراب ، وأخرى تعمها الأمراض بكل أشكالها ، والجرائم بكل أنواعها . وتسود المعيشة الضنكة : «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى» (طه : ١٢٤) .

وقد يقنع الغافلون عن ذكر الرحمن أنفسهم بأن ما يحدث ضريبة طبيعية لازمة لا مناص للراغبين في التمتع بالمعطيات الحضارية من احتمالها ودفع قيمتها الفادحة .

أما إهمال القراءة الثانية ، أي قراءة الوجود والكون والاقتصار على قراءة الوحي وحده منقطعا منبتا عن الوجود ، فإنه يؤدي إلى نفور من الدنيا ، واستقذار لها ولما فيها ، يشل طاقات الإنسان العمرانية والحضارية ، ويعطله عن أداء مهام الخلافة والأمانة والعمران ، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير ، ويعطل فكره وينتقص من قيمة فعله ، بل قد يلغي فعله فلا يرى الإنسان نفسه فاعلا في شئ ولا يرى لوجوده في الحياة معنى وكل هذه الأفكار منافية تماما لمنهج القرآن العظيم .

إن تجاوز القراءة الثانية في الكون وإهمالها أو عدم جمعها مع الأولى يؤدي إلى ظهور العجز الإنساني العمرانيّ وتعطل طاقات الإنسان والي خلط عجيب بين قضايا عالم الغيب وعالم الشهادة . وقد يتوهم المقتصرون على القراءة الأولى أن تنزيه الباري جل شأنه لا يتم إلا إذا ألغيت قيمة الفعل الإنساني ، ونفيت إرادته واختياره ، واستلب استلابا لاهوتيا كهنوتيا من دوره .

والناظر في مقالات الإسلاميين في الماضي وكتب الفرق الإسلامية يجد في مقالاتهم العجب العجاب في قضايا الخلط بين الفعل الإنساني والفعل الإلهي والإرادة الإنسانية وقضايا الاختيار والعلل والأسباب وسواها وذلك الخلط هو الذي أدى إلى كثير من الغبش والاضطراب في النظام المعرفي الإسلامي بعد القرون الخيِّرة .

الجمع بين القرائتين والأزمة:

إذن لابد من الجمع بين القراءتين أولاً: قراءة الوحي وقراءة الوجود والدمج بينهما بعد ذلك لئلا يقع الإنسان في أي من الطرفين الذميمين ومن هنا كان ما أسميناه بـ «إسلامية المعرفة» ضرورة معرفية ، وضرورة عمرانيّة لا على المستوى الإسلامي وحده ، بل على المستوى العالمي كله للخروج من المأزق المعرفيّ المعاصر والأزمة الفكريّة العالميّة المعاصرة : فبعد تكريس البعد المنهجيّ في التفكير واجهت الحضارة الغربية ـ نفسُها ـ مشكلة تحديد الصياغة المنهجية لحضارتها ومعرفتها صياغة تستند إلى تطور الغرب العلمي بكل جوانبه ولقد كانت الماركسية محاولة لإيجاد هذه الصياغة في إطار المادية الجدلية ، وها هي الماركسية تنهار بانهيار الاتحاد السوفيتي قبل أن يجد الغرب البديل المعرفي والمنهجي لها لتبقى الحضارة الغربية دون صياغة فلسفية بديلة ، ودون إجابات عن معظم الأسئلة النهائية المعلقة التي يشيح علماء اليوم بوجوههم عن الإجابة عنها . أما أزمتنا نحن العرب والمسلمين فهي

أشد وأنكى ، فإن لنا أزمتنا الماثلة في تفككنا وتخلفنا وفشل مشاريع النهوض والإصلاح في بلادنا ، كما أننا شركاء في الأزمة العالمية الراهنة لأن علاقتنا بها لم تعد علاقة برانية أو هامشية كما يتوهم البعض - فالحضارة المعاصرة قد نجحت من خلال غزوها الفكري والثقافي والمؤسسي ، أن تفرض علينا وعلى العالم كله منهجها ووعيها العلمي والمفاهيمي للوجود وللحركات الكونية ، كما فرضت على الجميع رؤيتها للتاريخ والعلم والمعرفة والحضارة والثقافة والتقدم والتخلف وغيرها .

القرائتان وحقيقة إسلاميّة المعرفة:

فما هي حقيقة «إسلامية المعرفة» التي نقترحها حلا لأزمتنا المعرفية والفكرية وأزمة العالم معنا ؟

توجد إسلامية المعرفة وتتحقق كما قلنا من قراءة كتابين ، وتؤسس على مقابلتهما والكشف عن التكامل المنهجي في البحث والاكتشاف بينهما : الكتاب الأول وهو كتاب الوحي المقروء ، ونعني به (القرآن) ، والكتاب الثاني وهو كتاب الكون المتحرك الذي يتضمن ظواهر الوجود كافة . فالقرآن العظيم والكون البديع كلاهما يدل على الآخر ، ويرشد إليه ويقود إلى قواعده وسننه . فالقرآن يقود إلى الكون ، والكون أيضا يقود إلى القرآن وهذا ما أطلقنا عليه (الجمع بين القراءتين) ، قراءة تبدو غيبية في إطار الوحي في الكون ، وقراءة موضوعية من خلال الكون وعناصره في الوحي . فقراءة الوحي بمثابة تنزل من الكلي إلى الجزئي ، وبما تتيحه القدرات البشرية النسبية من الفهم لتنزلات الكلي ، وقراءة الكون بمثابة تطلع من الجزئي باتجاه الكلي وفق قدرات البشر النسبية أيضا على فهم الظواهر ، فلا يقع الفصام المزعوم بين معطيات الوحي ونتائج المعرفة الموضوعية . وهذا ما أكدته بدايات التنزيل في سورة العلق : «اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥)» (العلق : ١ - ٥) .

تلك أهمية الجمع بين القراءتين بإيجاز شديد . أما حين يحدث الفصام بين القراءتين فإن المناهج المعرفية البشرية تقود إلى نتيجتين خطيرتين : فالذين يتعلقون فقط بالجانب الغيبي في القراءة ، أي بالقراءة الأولى في الوحي فإنهم يسقطون الجانب الموضوعي وعناصره من حسابهم فيتحولون بالدين إلى لاهوت وكهنوت يستلب الإنسان والكون وينفي الأسباب وقوانين

الحركة وصيرورتها وكافة السنن الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية التي يتفاعل معها الإنسان وبذلك ينتهي أصحاب هذه القراءة إلى فكر سكوني جامد قد يحسب خطأ على الدين حين لا يلتفت إلى محدوديته وقصوره ونسبته البشرية . والذين يتعلقون بقراءة الكون ـ وحده ويركزون على الجانب الموضوعي في إطار القراءة الثانية ، فإنهم ينفون البعد الغيبي الفاعل في الوجود وحركته وينتهون تدريجيا إلى الفكر الوضعي في المعرفة الذي يؤثر على النسق العمرانيّ بدوره ذلك التأثير السلبي ، وهكذا تنقسم البشرية وتتمزق وتتصارع بين اللاهوت الكهنوتي والوضعية الملحدة أو الجاهلة في حين أن أوائل التنزيل في سورة العلق تنفي اللاهوت عن الغيب حين تربط ما بين هذا الغيب والقراءة الثانية ، أي القراءة الموضوعية بالقلم . كما تنفي عن القراءة الموضوعية نهاياتها الوضعية حين تشدها إلى القراءة الأولى ، كما أنها تؤكد أن المتابع القارئ في الحالتين وللقراءتين هو الإنسان المؤمن بالوحي ، الفاقه له من ناحية والمتتبع لظواهر الوجود الكوني وحركته في الوقت ذاته . فلا يقع استلاب للإنسان ولا إخلال بمركزيته ولا تجاوز لدوره .

آثار التفريق بين القرائتين:

إن الفصل بين القراءتين جعل البشرية تعاني الكثير من أنواع الفصام في مناهجها التربوية ونظمها التعليمية بين علوم الدين والعلوم الكونية ولم تتوصل أمة من الأمم المعاصرة بعد إلى الصيغة التي تؤهل الطالب ليجمع بين العلمين في كل واحد ، وسبب ذلك سيادة المناهج الغربية في الفصل بين العلمين على مستوى العالم ، فطالب الوحي يذهب إلى كليات اللاهوت ، وطالب العلوم الكونية يذهب إلى كليات العلوم التطبيقية كما هو جار في الغرب ، أما لدينا فالفصل قائم بين كليات الشريعة والدعوة وأصول الدين وكليات العلوم الحديثة ، أو العلوم الاجتماعية والإنسانية فضلا عن العلوم التطبيقية .

القرائتان والمعرفة:

هذا الفصل بين القراءتين الذي أدى إلى ذلك الفصام النكد يحمل خطورة أخرى ، إذ يباعد بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، حيث طورت المناهج الوضعيّة علاقتها بهذه العلوم الإنسانية والاجتماعية وصاغتها وفق القراءة الثانية فقط ، فأبعدها ذلك عن تأثير العلوم الشرعيّة وهداية الوحي ، كما أن حملة العلوم الشرعيّة أو النقليّة فقدوا الكثير من قدرتهم على التأثير في هذه المجتمعات المتغيّرة المعقّدة في تراكيبها حين حيل بين علومهم

والعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة وما تقدمه من عون على فهم هذه المجتمعات وطرائق التعامل مع قضاياها ، وهذا يمثل تنبيها على أهمية العلاقة بين علوم الوحي والعلوم والمعارف الاجتماعيّة والإنسانيّة ، وهناك مجالات عديدة من علوم النفس وعلوم الثقافات الإنسانية والأنساق الحضارية المختلفة التي تبدو الحاجة إلى الجمع بين القراءتين فيهما أشد وأقوى . فالجمع بين القراءتين ضروريّ لتكوين ثقافة المسلم المعاصر وبشكل يختلف عن النسق الغربيّ الأوروبيّ الذي انتهى إلى ثنائيّة اللاهوت والوضعية وتصارعهما وتنابذهما . إن خطورة هذه الثنائية المفتعلة والمتطرفة ، أنها وقد قامت على الفصام فإنها دفعت بعض الأنساق الحضارية دفعا نحو الاتجاه الوضعيّ حين غيبت النظرة الكليّة للكون والحياة والإنسان ، وارتباط قيم الإنسان وأخلاقه بالله سبحانه وتعالى ، فتضخمت الذاتية البشرية على حساب القيم العقلية والأخلاقية التي اعتبرت نسبية متغيرة ، وأهم ثمرات الدين مكارم الأخلاق . إن ذلك التضخيم المفتعل للذاتية البشرية قد اتخذ وسيلة تبرير للصراعات القومية والصراعات الاجتماعية كما تم به تبرير الفردية الليبرالية إلى أقصى حد وبذلك تكرس الصراع بكل مظاهره بدلا عن السلام الذي تعطيه القيم ، وما ذلك إلا لأن الإنسان رأى نفسه مستغنيا عن كل شئ حتى عن الذي خلقه ، ومن يستغني عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يطغى في الأرض ، ويتطاول بناصيته على كل من يدعوه للقيم والأخلاق ، ولهذا تم الربط بين بدايات التنزيل في سورة العلق الداعية للجمع بين القراءتين وأزمة الطغيان والتطاول الإنساني للأنساق الحضارية الوضعية المتعالية بتطورها العلمي التطبيقي المجرد : «كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى» .(العلق : ٦ ـ ٨) .

فقضية الجمع بين القراءتين مسألة منهجية في المعرفة وتقود إلى نتيجة عمرانيّة ، فالذي يجمع بين القراءتين لا يستغني عن الله لأنه يدرك دوما افتقاره لله ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يستبد ولا يبتغي علوا في الأرض ولا فسادا ولا يطغى .

كيفية الجمع بين القراءتين :

إن المدخل الأساسي للجمع بين القراءتين يبدأ باكتشاف العلاقة المنهجية بين الناظم المنهجي لآيات القرآن من ناحية وبين السنن والقوانين المبثوثة في الوجود وحركته من ناحية ثانية فيربط بينها . فالقرآن وحي إلهي نتعقل به ونتفهم هذا الوجود انطلاقا من أن القرآن مطلق ومحيط وشامل ، وبقدر ما تتسع معرفتنا للاثنين معا بقدر ما تتكون لدينا القدرة على الجمع بين القراءتين واكتشاف التداخل المنهجي بين الوحي والكون ، فمنهجية القرآن

هي منهجية الوجود ، والمطلوب عدم الاقتصار على قول ذلك نظريا ولكن ينبغي اكتشاف ذلك تطبيقيا . فالقول النظري قد لا يتجاوز حالة تبشير بفرضية قد تكون غير صحيحة أو مما يمكن الطعن فيه ، ولهذا يكون التحدي الأول والأهم للمسلم المعاصر وخاصة أولئك الذين يحملون هموم «إسلاميّة المعرفة» هو اكتشاف هذا التداخل المنهجي من خلال الجمع بين القراءتين بين الوحي الإلهي والعلوم الطبيعية والإنسانية القائمة على السنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان .

أما الحديث عن عظمة القرآن فإن القرآن عظيم حقا ومعجز فعلا ، وقد كتب الناس عن عظمته وإعجازه آلاف الصفحات ، بل ملايينها ، لكن تلك الكتابات لم تستطع أن تكشف للناس عن منهجيته المستوعبة لسنن الكون وقوانين حركته والقادرة على إقامته على قواعد الهدى ودين الحق . كما لم تؤد إلى الكشف عن التداخل المنهجي بين قراءة القرآن وقراءة الكون . فقد بقيت آيات كريمة كثيرة ومقولات دينية عديدة عرضة لتأويلات شتى . وفي كثير من تلك التأويلات تبدو الإسقاطات الإسرائيلية ونحوها واضحة . كذلك بقيت في المعارف الإنسانية والاجتماعية الحديثة ، بل وفي العلوم الطبيعية المعاصرة كذلك أبعاد غائبة ، وأسئلة كثيرة حيرى لا تجد من مدارس تلك العلوم المختلفة إجابات شافية ، لأنها لم تكتشف ذلك التداخل المنهجي بين القراءتين إلا في حدود جزئية تمثلت في محاولات انتقائية يغلب على بعضها التلفيق الذي يجعلها تبدو مفتعلة إلى حد كبير كتلك المحاولات التي تبدو فيما عرف مؤخرا بـ «الإعجاز العلمي» .

فتأكيدنا الدائم على وجوب الجمع بين القراءتين ، واعتبار ذلك شرطا مسبقا للخروج من الأزمة الفكرية والمعرفية في مستوياتها العالمية والمحلية يحمل توكيدا على وجوب الالتفات إلى ذلك الارتباط المنهجي بين القرآن والكون والإنسان لتكتمل حلقات التصور الإسلامي ، وتظهر سائر مقوماته وتبرز علاقة الغيب بالطبيعة والإنسان ، ويتخلص الإنسان من مأساة الفصام بين اللاهوت والناسوت أو بين الدنيا والآخرة ، أو بين التنزيل الإلهي والوضعية البشرية وما جره ويجره ذلك الفصام النكد من مشكلات .

معالم على طريق الكشف عن منهجيّة الجمع بين القرائتين:

إن هذه المهمة لا يستطيع النهوض بها إلا من أوتي القرآن وحظا من العلوم والمعارف كافيا لاكتشاف ذلك التداخل المنهجي بين القرآن والكون

والإنسان ولذلك أرسيت قواعد «إسلامية المعرفة» على الدعائم التالية :

١» إعادة بناء «النظام المعرفيّ الإسلامي» وفقاً لمقتضيات «الجمع بين القرائتين» . وهذا يقتضي إعادة بناء عقيدة التوحيد في القلوب ، وإعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية القائمة على مقومات وخصائص التصور الإسلامي السليم ليتضح ما يمكن اعتباره «النظام المعرفي الإسلامي» القادر على الإجابة عن الأسئلة الكلية النهائية ، دون تجاوز شئ منها ، وبناء قدرة ذاتية على النقد المعرفي الذي يمكن من الاستيعاب والتجاوز بشكل منهجي منضبط ، وبالوقت نفسه يعطي القدرة على التوليد المعرفي المنهجي . والتفسير المعرفي الذي لا يقوم على ظواهر الألفاظ والخطابة بل على المعرفة المنهجية التامة .

٢» اعتماد المنهجيّة المعرفيّة القرآنيّة القائمة على «الجمع بين القرائتين» منهجيّة بديلة عن مناهج الأزمة والتجزئة والتضاد والصراع التي تكاد تأتي على الإنسان والكون معاً . وليتأتى لنا ذلك لابد من إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المنهجية الإسلامية على ضوء «المنهجية المعرفية القرآنية» وعلى هدى منها . فإن أضرارا بالغة قد أصابت هذه المنهجية نتيجة القراءات المفردة والتجزيئية التي قرأت القرآن عضين - أي: كأنّه أعضاء فآمنت ببعض وكفرت ببعض ، وعملت ببعضه وأهملت بعضه الآخر - ، وقرأت الوجود والإنسان في معزل عنه قديما وحديثا ، وليتمكن العقل المسلم من تجاوز تلك الأمراض الفكرية التي شلت فاعليته كالاضطراب في فهم علاقة الغيب بالشهادة وعلاقة النقل والعقل وعلاقة الأسباب بالمسببات وغير ذلك من أمور .

٣» ولتحقيق «الجمع بين القرائتين» لابد من مراجعات عديدة على ضوء ذلك لكثير من المعارف أو العلوم التي سُميت في تراثنا بـ «علوم القرآن» مثل التفسير وسواه ، ونقد هذه المعارف وتنقيتها مما يتعارض مع منهجيّة «الجمع بين القرائتين» . وهذه المراجعات تستهدف بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد من خلال هذه الرؤية المنهجية وباعتبار القرآن المصدر المنشىء لبناء المنهج والشرعة والمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمراني ، وقد يقتضي ذلك إعادة بناء وتركيب علوم القرآن المطلوبة لهذا الغرض ، وتجاوز الكثير من الموروث في هذا المجال من المعارف التي أدت دورها في خدمة النص القرآني . فالإنسان العربي قد فهم القرآن ضمن خصائص تكوينه الأولى التي كانت بسيطة في بداياتها ومحدودة

اجتماعيا وفكريا في إطار لغويّ ومعطيات نقليّة تجعل الأهمية الأولى لصحة النقل وتوثيق الرواية بالطرق المتعارف عليها لديه والتي كانت تمثل أرقى طرق التوثيق في عصره . وحين جاء عصر التدوين الرسمي للعلوم والمعارف النقلية الإسلامية التي دارت حول النص القرآني والحديث النبوي برزت تلك الخصائص فيما دُوِّن من علوم ومعارف . كما ظهرت إلى جانبها خصائص العقلية البلاغية واللغوية العربية في تلك المرحلة وما تقتضيه من اتجاه نحو التجزئة باتجاه الجمل والتراكيب مع ملاحظة المفردات فتلك كانت هي المنهجية السائدة ، ولذلك اعتبر الفهم الذي تولد عنها مقبولا وكافيا في تلك المرحلة ، أما في المرحلة العالمية الراهنة حيث تسيطر عقلية الإدراك المنهجي للأمور والبحث عن علاقاتها الناظمة لها بطرق تحليلية ونقدية توظف الأطر والقواعد العلمية المختلفة ، وتربطها بموضوعات حضارية متشعبة وعلاقات متنوعة فلابد من إعادة النظر في علوم وسائل فهم النص وخدمته وقراءته قراءة الجمع مع الكون والتداخل المنهجي معه وتخليصه من كثير من أنواع التفسير والتأويل المتعلق بتلك المراحل ، وتجريده من الربط الوثيق بالنسبي من خلال الإسقاطات الإسرائيلية وغيرها ، أو الربط التام بأسباب النزول والمناسبات وحتى تظهر وجوه التحدي بالقرآن العظيم ، ووجوه خلود إعجازه ينبغي أن يضاف إليها ـ الآن ـ البعد الاجتماعي والمنهجي ليتحقق التحدي الدائم به ويبرز إعجازه الذي هو الدليل المنهجي الأول على إطلاقيته في عصرنا هذا .

٤» بنى الأصوليون مناهجهم في التعامل مع السُنّة النبويّة المطهرة باعتبارها المصدر المبيِّن ـ على سبيل الإلزام ـ للقرآن المجيد ، والمصدر الثاني للتشريع . والفرق كبير بين القضايا والأسئلة الفقهيّة وبين الظواهر والاشكاليّات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة ، ومن هنا تبدو الحاجة إلى مراجعة شاملة لمناهجنا الموروثة في التعامل مع السُنّة النبويّة واضحة تماماً ؛ لكيلا ينحصر تعامل المسلم مع السنّة في الدائرة الفقهيّة وأحكامها فقط ، بل يجري التعامل معها باعتبارها الاطار المنهاجي لربط قيم الوحي بالواقع نستفيد منها «فقه التدين» والفقه العمرانيّ وفقه التأسّي لبناء الحياة ، وعلى هذا فإننا نحتاج إلى إعادة بناء منهج للتعامل مع السُنّة النبويّة المطهرة ـ أيضا ـ من خلال تلك الرؤية المنهجية ليتحقق التأسّي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واتباعه في المنهج والشرعة والمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمراني . فقد كانت مرحلة النبوة وعصر الصحابة مرحلة تعتمد على الاتصال المباشر

برسول الله صلى الله عليه وسلم ومتابعته والتأسي به فيما يقول أو يفعل : «خذوا عني مناسككم» «صلوا كما رأيتموني أصلي» والاتباع والتأسي يعتمدان على التحرك العملي لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الواقع . فالرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يجسد بسلوكه القرآن في الواقع ، والربط بين النص والحياة في التطبيق النبوي ، والبيان المحمدي كانا يضيقان الشقة تماما بين مكنونات المنهج الإلهي القرآني وبين الواقع بعقليات أهله وقدراتهم الفكرية والمعرفية وبشروط ذلك الواقع الاجتماعية والفكرية في إطار السقف المعرفي السائد فيه . ولذلك كان الرواة من الصحابة - رضوان الله عليهم - حريصين على أن لا تفوتهم أية جزئية تتعلق بحياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأن ذلك هو البديل الوحيد عن الوعي بالمنهج الناظم للقضايا المختلفة ولذلك اشتملت السنة على ذلك الكم الهائل من أقوال وأفعال وتقريرات رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وتلقينا كل تلك التفاصيل التي تجعلنا قادرين على أن نتابع حركته اليومية عليه الصلاة والسلام في غدوه ورواحه وسلمه وحربه وتعليمه وقضائه وقيادته وفتواه ، وممارساته الإنسانية بطريقة تكشف عن منهجه وأسلوبه أو سنته عليه الصلاة والسلام في التعامل مع الواقع وتكشف - إضافة لذلك - عن خصائص الواقع الذي كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتعامل معه ويتحرك فيه . وهو واقع لاشك مغاير للواقع الذي نحياه في تركيبته وعقليته .

لقد كان عليه الصلاة والسلام في سنته يمثل تجسيدا للربط بين المنهج القرآني والواقع ، ولذلك فإن من الصعب فهم الكثير من القضايا في معزل عن فهم ذلك الواقع الذي كان عليه الصلاة والسلام يتحرك فيه ، والمعرفة التي تساعدنا على فهم وتحليل ذلك الواقع لا تقل أهميّة عن المعرفة التي نتمكن بها من فهم واقعنا نحن ، وكلا المعرفتين لابد من إدراجهما في إطار علوم الوسائل لطلبة العلوم الشرعيّة أو النقليّة .

بين التأسّي والتقليد:

لقد ارتبط العرب في مرحلة نزول القرآن بمفهوم الاقتداء واتخذوا من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قدوة عملية جسدت لهم المنهج طبقا لشروطهم الواقعية الحياتية . وعبر الاقتداء نشأت مفاهيم التعامل مع «المأثور والمنقول» . وفي محاولة للتخفيف من الآثار التي نجمت عن ذلك التعامل الجزئي لجأ من لجأ إلى التأويل الباطني والتفسير الرمزي

والإشاري كمخرج من التقيد بحرفية المأثور ولكن ما زاد ذلك الأمر إلا اضطرابا ، وثارت بعد ذلك مشكلات حجية السنة جملة ، أو حجيّة بعض أنواعها وغير ذلك من القضايا التي لانزال نعاني منها . ولو أنه تم الوصول إلى المنهج القرآني النبوي للتعامل مع السنة لانضبط التعامل معها في سائر التفاصيل والجزئيات ، ولفهمت في إطار المنهج قضاياها الجزئية من خلال إطار تبيُّن المقاصد واتّضاح الغايات . فالاقتداء قد يؤدي إلى نوع من التقليد الشكلي ، أما التأسّي والاتباع فهي أفعال منهجيّة تعتمد على فهم حقيقة الفعل ، وتجريد علله وأسبابه وغاياته ، ووضعه موضعه في إطار النموذج المعرفيّ الكليّ .

إن العقليّة المعاصرة عقليّة ـ تبحث باستمرار ـ عن الناظم الموضوعيّ للأمور ، وتحاول النفاذ إلى المنهجيّة الكاملة الأبعاد . فضمن هذه المنهجيّة يصبح التحليل والتفكيك والنقد والتفسير هي الإطار الموضوعيّ للحركة الفكريّة في تعاملها مع النصوص والقضايا الكونيّة والمحليّة . وبهذه المنهجيّة يمكن النفاذ إلى مقاصد القرآن المجيد وتفهم السنة النبوية دون الوقوع في إطار ماضويّة سكونيّة أو تأويلات باطنيّة ، أو محاولات تجديديّة تحاول إحداث تعديلات أو تأويلات لتطبيقات الماضي لتعيد إنتاجها في الحاضر فكأنها تعبير عن الماضي في ثوب جديد .

٥» إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامي وقراءته قراءة نقدية تحليلية معرفية تخرجنا من الدوائر الثلاث السائدة التي تحكم أساليب تعاملنا مع تراثنا ـ في الوقت الحاضر ـ : دائرة الرفض المطلق له ودائرة القبول المطلق ودائرة الانتقاء العشوائي اللامنهجي . فهذه الدوائر الثلاث لا يمكن أن تحقق التواصل مع ما يجب التواصل معه من هذا التراث ، كما لا يمكن أن تحقق القطيعة مع ما يجب إحداث القطيعة معه .

٦» بناء منهج للتعامل مع التراث الإنساني المعاصر ـ أيضا ـ أو ما يعرف «بالتراث الغربي» يخرج تعامل العقل المسلم معه من أساليب التعامل الحالية التي تخلفت عن أطر ومحاولات المقاربات ثم المقارنات ثم المقابلات والمعارضات لتنتهي بالرفض المطلق ، أو القبول المطلق بروح مستلبة تماما أو الانتقاء العشوائي المتحيز له أو عليه .

فهذه الخطوات أو المحاور أو المهام الستة هي التي أطلقنا عليها: «إسلاميّة المعرفة» أو المنهج التوحيدي للمعرفة أو أسلمة العلوم الإجتماعيّة

والإنسانيّة وتوجيه العلوم الطبيعية وجهة إسلامية أو التأصيل الإسلامي للعلوم .

إسلاميّة المعرفة والعلم الحديث:

لأول مرة نجد أنفسنا أمام وضعية عالمية تعمل على توظيف المعارف والعلوم واكتشافات العلوم ومنجزاتها توظيفا يفصم العلاقة بين الخالق والكون والإنسان ، وذلك بطرح تصورات حول الوجود يبدو بعضها نقيضا لتصوراتنا الإسلامية ، وقد تكون هي كذلك وقد لا تكون ، إذ ليست القضية أن ننتقي من مقولاتنا الدينية ما يتوافق مع تلك التصورات لنقول : إنها لدينا من قبل ، أو نرفضها وندمغها بالكفر ، فمنطلقنا ومنذ الأساس تجاه العلوم الكونية ليس منطلقا لاهوتيا أو كهنوتيا ، وليس مطلوبا منا أن نقتدي بغيرنا ، لأن تجربتهم في مواجهة العلم ومنجزاته تختلف عن تجربتنا ، فلو كان القرآن لاهوتا لما جازت فيه إلا قراءة البعد الواحد ، أي القراءة الأولى فقط ، وقد أمرنا بخلاف ذلك ، فنحن لا نصارع العلم لأننا ندرك أن الوحي في الكون الكتابي هو ذات الوحي في الكون الطبيعي ولكل منهما أسلوب ومنهج قراءة يخصه ، فإذا ظهرت انحرافات أسندت إلى العلم ، فالمطلوب هو تطهير العلم منها ، وإذا ظهرت انحرافات في التفسير والتأويل فيجب حماية النص منها ، وهذا أساس الجمع . إذ لم يكن الدين من قبل يواجه سوى فكر عقلي وضعي مجرد لم يكن مسلحا بالعلم التطبيقي المعاصر ونتائجه التي أدت إلى قيام مذهبيات تجاوزت الوضعية التقليدية ، فالمطلوب منا ـ كما أمرنا ـ استرجاع أو استرداد العلم من هذه المذهبيات وتنقيته من تحيزاتها التي دخلته مع القراءة المنفردة وإعادة توظيفه . وتنقية علوم خدمة النص مما ألحق بها أو أضيف إليها ، لتستقيم القراءة وتتحقق إمكانيات «الجمع بين القراءتين» .

هذه ـ في نظري القاصر ـ هي «إسلاميّة المعرفة» ـ كما أفهمها ـ وهذا هو ما نعمل لتحقيقه وانجازه ، وهو محتوى ومضمون خطابها المعرفيّ ـ فهو في جوهره ـ:

خطاب فكريٌ منهجيٌ معرفيٌ ، يقوم على مسلمات بعضها تدخل في دائرة مسلّمات ما قبل المنهج ، وبعضها تتكون في إطار المنهج ، وبعضها تدور في دائرة التصور الإسلامي ، والنموذج المعرفيّ الكليّ ، وبعض النماذج المعرفيّة الإسلاميّة الجزئيّة .

الخطـاب والمخاطـب:

وهذا الخطاب يستهدف أولاً وبالذات جمهور المثقفين المعرفيّين والقادرين على التعامل مع القضايا الفكريّة في مستوياتها المُشار إليها ، وهم في الغالب عدد محدود ، ونادر الوجود . وخطاب «إسلاميّة المعرفة» - إضافة إلى ما تقدم - هو خطاب إبستمولوجي ، يستخدم مصطلحات ومفردات قد استقرت بعض مفاهيمها ومضامينها ومدلولاتها في ضمير الأمة منذ وقت طويل ، وأصبح مجرد ذكرها يؤدي إلى تداعيات لتلك المضامين والمفاهيم تجعل مهمة خطاب «إسلاميّة المعرفة» مهمة صعبة معقدة ؛ لأنّها ترد على مورد كثير جداً واردوه ، وكثيرهم الذين عرفوه بمواصفاته الأولى وأفكاره المطروحة سابقاً . وحتى الجديد من هذه المفاهيم أو المفردات المستعملة في دائرة «إسلاميّة المعرفة» تتعامل معه العقليّة المسلمة (التي مردت على القياس ودرجت عليه وعلى استعماله) بأسلوب القياس لتلبس هذه المفاهيم ما تستدعيه قياساً من مضامين مختزنة في الذاكرة الإسلاميّة .

وهناك قضايا أخرى إضافيّة تزيد من الصعوبات والمشاق التي تعترض سبيل حامل هذا الخطاب ، منها: المفردات الإسلاميّة المتداولة بين الجمهور المخاطب ، سواءً منها المستنزل إلينا من الواقع التاريخي أو المولّد في الواقع المعاصر . وهذه بدورها تسهم بشكل كبير في إضفاء صفة اللبس والاختلاط ، بل والغموض أحياناً ، على هذا الخطاب ، فتجعل المخاطب في بعض الأحيان يستقبله على أنّه خطاب خفيّ أو يدعو إلى التساؤل لظهوره وبداهته وارتباطه بما يشبه تحصيل الحاصل . وقديماً قيل: «ومن شدّة الظهور الخفاء» ؛ إذ أيُّ داع ، في نظر هؤلاء أو هذه الشريحة من المخاطبين ، لخطاب معرفيّ منهجيّ إسلاميّ في دائرة إسلاميّة تحيا الإسلام وتعايشه ، وبين يديها الكتاب والسُّنّة ؟؟! .

كما أن الخطاب تعترضه عقبة أخرى تتمثل بأنه خطاب موجه إلى دائرة إسلامية عاشت في ظروف مختلفة بدأت مع ضحى الإسلام ، واستمرت حتى اليوم تتحدث عن «النص» باعتباره مقابلا «للعقل» بأي وجه من وجوه المقابلة ، سواء أكانت مقابلة تضاد أو تناف أو تناقض أو تمانع أو تعاند . وتنظر إلى الفكرة والفكر على أنه أقلّ مرتبة بكثير من مدلول «النص» ، بل إن مصطلح أو لفظة «الفكر» ذاتها تعتبر حديثة الاستعمال أو مبتدعة - في نظرها - بوصفها إسما وإن كانت معروفة بوصفها فعلا ، ومستعملة في الكتاب الكريم !!

وهناك أمر يمكن أن يضاف إلى ما تقدم وهو شيوع مدلول «الفقه» واحترامه واعتباره ـ وحده ـ الناتج الطبيعيّ للاجتهاد الشرعيّ أو النظر الشرعيّ ، وأما «الفكر» ، فهو شئ أقل من الفقه وأضعف ، وهو في حاجة دائمة إليه ليأخذ مشروعيته منه ، كما أنه في حاجة ماسة إلى «النص» ليدل عليه ويزكيه ويسنده ، وإلا فقد يعتبر الخطاب الفكري مهما بلغ من القوة والقدرة على الإقناع والمعقولية أقرب إلى الخطرات الانتقائية والتأملات التي لا تجد ما يعززها .

فإذا تجاوزنا هذا وذاك ، ونظرنا إلى ساحة الخطاب ذاتها وما يصب فيها ، وهو عقل المخاطب المسلم ، ونظرنا في مفردات الخطابات الموجهة إليه ، وبخاصة خطابات الحركات والمنظمات والأحزاب والهيئات والجماعات الإسلامية وغير الإسلامية ، نجد منظومة أخرى من المفردات قد احتلت عقل المخاطب المسلم واستولت على مساحات هامة فيه . وبدأت مفرداتها تتوالد وتتكاثر وتتفاعل في تلك المساحات من عقله ، مثل مفاهيم: «الدعوة ، الرسالة ، القيادة ، الجندية ، النظام الإسلامي ، الشريعة ، تطبيق الشريعة ، الفقه ، الحكم ،الجهاد ، الكفاح ، الاستشهاد ، الحدود ، المجتمع المسلم» . كما أن هناك قضايا ساخنة أخذت صفة القضايا الأساسية مثل : فلسطين ، أفغانستان ، بوسنيا ، مضافا إليها : «النضال ، التقدم ، الحداثة ، الرجعية ، ما بعد الحداثة ، نقل التكنولوجيا الحضارية ، الفقر ، الجوع ، المرض ،الرجعية الأصولية ، الأصالة ، الوحدة ، الطائفية ، المذهبية ، السكان ، البيئة ، التعددية ، الديمقراطية ، حوق الإنسان ، حوار الحضارات أو صدامها ، نزع السلاح ، الاختلاف ، الفرقة ،السوق المشتركة ، القروض والديون الدولية ، النظام العالمي الجديد» وغيرها كثير . إذ ألقينا نظرة على هذا وذاك ، وتأملنا فيما أشرنا إليه ، نجد أننا في خطابنا للعقل المسلم نحاول أن نقتحم ساحة كأنها لم يعد فيها موضع لأي شئ إضافي ، وبالتالي فلا غرابة أن تجد هذه الساحة تقف منك ومن خطابط المعرفيّ مواقف مختلفة ومضطربة ، بل ومتناقضة في بعض الأحيان . فأحيانا تستقبلك هاشة باشة ، تكاد تطير فرحا بك ، وأحيانا تستقبلك متحفظة واجمة ، حيرىٰ والهة متسائلة ، متوقفة ، وأحيانا تستقبلك متجهمة متهمة ، متوهمة ، وأحيانا تستقبلك وقد كشّرت أنيابها معلنة عن رفضها لك واستعدادها لمحاصرتك حتى الموت ، وأحيانا وأحيانا .

وكل ذلك لا يمكن أن يعتبر تعبيرا حقيقيا عن طبيعة مشاعرها وحقيقة نظرتها إلى هذا الخطاب وأهله ، ولكن هذه المواقف المضطربة تعبير عن حالتها هي ، ومعاناتها وما يجيش في حنايا صدرها ، فهي أمة اختلط فيها

السمع بالشرع ، والعقل بالنقل ، وعالم الأفكار بعالم الأشخاص ، وعالم الأفكار والأشخاص بعالم الأحداث اختلاطا من الصعب أن يسمح بغير ما أشرنا إليه من مواقف . ومن هنا أود أن تراجع مدرسة «إسلامية المعرفة» مقولاتها وأطروحتها ومفاهيمها ومصطلحاتها ومفرداتها مفككة وبعد التركيب ، لكي تحدد بعد ذلك الجمهور المخاطب ومواصفاته ، والموقع المناسب وخصائصه والمنطق المناسب وإمكاناته والوقت المناسب . فكل ذلك يحتاج من هذه المدرسة إلى مراجعة دائمة ، ودراسة وتقويم مستمرين ، ونظر فاحص يتناول الخطاب والمخاطب ودائرة الخطاب وأهداف الخطاب وساحته وسائر وسائله وأدواته .

مصطلحات وعناوين الخطاب:

إن أهم المفردات المستعملة في هذا الخطاب ـ خطاب «إسلامية المعرفة» ـ يمكن تتناولها فيما يلي :

- المنهجية المعرفية القرآنية ، والمنهجية بإطلاق
- منهجية التعامل مع الكتاب
- منهجية التعامل مع التراث الإنساني
- الفكر والفقه العمرانيّ
- الشهود الحضاري أو العمرانيّ
- الاجتهاد والإبداع
- العلم والمعرفة
- الوحي
- الكون
- علم العلوم والمعارف
- التقليد والاتباع والتأسّي
- الأزمة الفكرية
- عالمية الخطاب الإسلامي
- حاكميّة الكتاب الكريم
- شرعة التخفيف والرحمة القادرة على استيعاب العالم
- المنظور الحضاري أو العمرانيّ
- النموذج المعرفي الإسلامي
- إعادة تشكيل العقل المسلم
- انعكاسات التوحيد على الفكر والمعرفة

- الأمة القطب
- الأزمة الثقافية
- الثغرة والبديل
- الرؤية الإسلامية
- النظام المعرفي الإسلامي
- منهجية التعامل مع السنة
- منهجية التعامل مع التراث العربي
- أسلمة المعرفة
- التأصيل الإسلامي للمعرفة
- التجديد
- المعرفية
- النماذج المعرفية
- الشخصية الإسلامية
- المنهجية التقليدية
- الثنائيات
- الجمع بين القرائتين
- ختم النبوة
- التصور الإسلامي
- أزمة العقل المسلم
- وحدة الأمة
- الإسلام والغرب
- النظرة الإسلامية
- التفكيك المعرفي
- التركيب المعرفي
- المقارنات
- خصائص ا لقرآن (التصديق والهيمنة ، الاستيعاب والتجاوز)
- المقاربات
- جركات الإصلاح

أما المفردات الشائعة بين الحركات الإسلامية بالذات ، في داخل المجتمع المسلم ، فإن كلماتها المفتاحية الأساسية تتمثل بالمفردات التي تقدم ذكرها .

فإذا لوحظت كل هذه الأمور ، ولوحظت معها قائمة المفردات الطويلة التي تقذفنا بها وكالات الأنباء ، وأجهزة الإعلام والسينما والدولة والتي تبلغ الملايين (فكل وكالة من وكالات الأنباء الكبرى تقذف العقل الإنساني المعاصر بعشرات الملايين يوميا) من الأخبار والقضايا التي تدور حول هدف أساس هو إغراق العقل الإنساني بقضايا الحضارة السائدة بحيث لا تكون لديه فرصة إطلاقا للفكاك من إسارها أو تجاوز معطياتها ومتغيراتها . ندرك آنذاك الصعوبة البالغة التي تواجه خطابا مفارقا كخطاب «إسلامية المعرفة» ليشق طريقه إلى العقول والقلوب في هذا الزحام .

ومن هنا تصبح عملية صياغة الخطاب المعرف بقضية «إسلامية المعرفة» والداعي إليها قضية شديدة التعقيد بالغة الصعوبة .

التناول المعرفيّ:

وآنذاك تصبح عملية الاستيعاب لتلك المشكلات المطروحة والملحة أمرا يصعب تجاهله أو تجاوزه . ولكي لا تتجاوز هذه القضية أبعادها المنهجية والمعرفية فينبغي أن يكون تناولها لكل ما تعالجه من تلك القضايا تناولا معرفيا ، إذ هو ا لمسلك الوحيد المفتوح أمامها ، وهو الذي يجعل معالجتها متميزة والاستيعاب هنا لا يمكن أن يتم إلا على مستوى إبستمولوجي منهجي كوني ، لا يمكن أن يقدمه في عصرنا هذا إلا القرآن العظيم ، فهو وحده الحامل لمنهجية كونية بحكم كونه الكتاب المعادل للكون وحركته . والمشتمل على منهجية معرفية تقابل سننه وقوانينه ، وهي قابلة للاكتشاف والفهم المتجدد المناسب لمحدودية الإنسان بالنظر إلى أفراد الحقيقة الإنسانية ، والذين يعيشون أعمارا محددة ، أما الحقيقة الإنسانية المتصفة بالاستمرار ، فهي أمر آخر . وليستوعب القرآن العظيم بمنهجيته المعرفية الكونية تلك المعطيات والمتغيرات التي أشرنا إليها ، فإنه لابد من اكتشاف محدداته المنهجية بدقة ، ووضعها بإحكام ، باعتبارها حلقات في سلسلة تلك المنهجية المعرفية ا لكونية التي نسعى للوصول إليها كاملة على مستوى قدراتنا وسقفنا المعرفيّ ، ويمكن أن تتلخص أهم هذه المحددات المنهجية بما يلي:

عالمية الخطاب القرآنيّ ، وحاكميّته وعربيّته ، وهيمنته ، وتصديقه ، وعصمته ، وختم النبوة بحامله صلى الله عليه وآله وسلم ، واشتماله على شرعة التخفيف والرحمة ، واشتماله على المنهجيّة المعرفيّة .

فإذا لوحظت هذه المحددات المنهجية واستمرت عقول المسلمين ، وبخاصة القادرين منهم من أمثال مدرسة إسلامية المعرفة ذاتها ، على التفاعل مع هذه المحددات والتعامل معها ، واختبار آثارها ، فإن ذلك ولاشك سيفتح السبيل نحو إعادة صياغة الخطاب الإسلامي المعبر عن منهجية كونية قادرة على التصديق على كل تراث البشرية واسترجاعه بالنقد القائم على الاستيعاب والتجاوز والهيمنة على المشتركات الإنسانية التي لابد منها ، وتجاوز أمراض الفكر والمعرفة من التحيز والوهم والظن والانتقاء وغيرها ، وتمكين الإنسان الذي أصبح عاجزا عن الإبداع وعن التجديد والتركيب ، فضلا عن الانطلاق باتجاه عملية التجدد العمرانيّ الحضاري التي أصبحت ضرورة عمرانيّة ، إن لم تتحقق فإن العبثيّة والعدمية وسائر الانحرافات الأخرى سوف تودي بالإنسان وتصادر مستقبله بعد أن تدمر حاضره .

هنا قد يجد خطاب إسلامية المعرفة نفسه مطالبا بأن يكون ذا شقين أو نوعين لكل منهما مواصفاته وخصائصه .

أولهما : خطاب للدائرة الإسلامية تراجع بين الحين والآخر صياغته في ضوء المؤشرات التي ذكرناها .

ثانيا : خطاب للدائرة العالمية يوجه بصورة خاصة إلى المدارس الغربية الفلسفية ، القائمة على صياغة الفكر الفلسفي الإنساني المعاصر ، والتي آلت إليها مقاليد قيادة فلسفة العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية ، والدخول معها في حوارات عِلميّة معرفيّة جادة على مستوى المناهج وفلسفة العلوم الطبيعيّة .

إسلاميّة المعرفة بين المدرسة والتيار:

إن مدرسة «إسلامية المعرفة» رغم أنها تشكلت ونمت في إطار سادت بعض جوانبه الإجرائية إلى حد ما بعض العفوية ، إلا أننا حين نلاحظ الأهداف العامة التي تبنتها والقضايا المشتركة التي التزمت بها يمكن أن يقال: إنها

مدرسة فعلاً . أما حين تلاحظ المعالجات المختلفة لقضاياها ، فإنها لاتزال في مستوى إطار مرن جدا قد تصل مرونته إلى حد التعبير عن الشئ وما قد يتقاطع معه في مرحلة من مراحل الطريق . ففي داخل هذه المدرسة قد يعبر البعض عن «إسلامية المعرفة» انطلاقا من رؤية حضارية منفعلة بمفاهيم التنمية والتقدم والتخلف والنهضة والتراجع ونحوها . وهذا توجه تكون لديه «إسلامية المعرفة» بمثابة المنطلق التحريضي باتجاه النظر إلى النموذج الغربي على أنه هو النموذج الحضاري المطلوب اللحاق به في عمليات التنمية والصناعة والتقدم دون التورط بفلسفته الإنسانية والاجتماعية . ومن هنا فكر البعض بأن من الممكن اقتباس عمليات التنمية ونظرياتها في سائر جوانب الحياة دون التأثر بمنطلقاتها الفكرية والمنهجية . ومعظم الذين يتكلمون عن قضايا «إسلامية المعرفة» من منطلقات التأصيل الإسلامي للعلوم والمعارف يمكن أن يجدوا مواقعهم في هذا الاتجاه . وهو توجه يرى في قضية إسلامية المعرفة قضية إسلامية محلية تخص الداخل الإسلامي وحده في إطاريه الجغرافي والبشري ولا تتجاوزه إلى سواه . ومن نماذج هذه الدراسات المقدمة في هذا الإطار دراسات مالك بن نبي - رحمه الله - وسيد دسوقي حسن ، ومحمود سفر ومحمد عمارة .

وتوجه آخر يرى في إسلامية المعرفة ما رآه الغزالي وهو يعد لكتابة كتابه «إحياء علوم الدين» ، فهي توجه إسلامي لإعادة الفاعلية والحركة لعلوم الدين وجعلها قادرة على أن تكون بديلا منهجيّاً ومعرفيّاً وثقافيّاً لسائر معطيات التراث المعاصر . وهو توجه ينطلق من قناعة بعظمة وتكامل وقدرة التراث الإسلامي على إعادة إنتاج الحضارة الإسلامية لو أعيدت عملية التمسك به . وأعيد تقديمه وعرضه بوسائل وأساليب معاصرة وجرت له عملية إحياء . ويمكن ملاحظة بعض دراسات عماد الدين خليل ، محسن عبدالحميد ، وعمر عبيد حسنة فيما أنتجه قبل المرحلة الأخيرة التي هو فيها .

وتوجه ثالث يرى فيها قضية يمكن أن تقوم على انتقاء أيديولوجي من كل من التراثين الإسلامي والمعاصر لتقديم معرفة مركبة يمكن أن تسمح بإعادة تشكيل العقل المسلم المعاصر بحيث يصبح عقلا قادرا على التفوق على الآخر بما يملك من قدرة على الجمع بين التراثين ، والتوفيق بين أحسنهما . ويمكن ملاحظة ذلك في كثير من الدراسات التي أعدت في إطار كلية العلوم الإجتماعيّة بجامعة الإمام وكذلك بعض ما أعد في مكاتب المعهد في الخارج وفي مقدمتها مكتب القاهرة في الفترة الثانية من فترات نشاطه .

وتوجه رابع ، يرى في إسلامية المعرفة مجرد نموذج معرفيّ وتوجه أخلاقي وقيمي يريد أن يعطي للمعرفة الإنسانية المعاصرة المحايدة غطاءاً من القيم التي انفصلت عنها نتيجة أفكار الحيدة والموضوعية التي اعتبرت فيما بعد أفكارا وهمية . فإذا أضيف إلى ذلك التمييز بين المعارف ومفاهيم الضار والنافع والمحمود والمذموم ، وربطت بما يمكن أن يعرف بمقاصد المعرفة في الإسلام ، فذلك سوف يحقق أهداف إسلامية المعرفة بأجلى صورها وأحسن أهدافها . ويمكن أن يلاحظ ذلك في دراسات المسيري ونحوه .

وتوجه خامس يرى في إسلامية المعرفة محاولة تصحيح للبرامج والمشاريع السياسية التي تطرحها بين حين وآخر جماعات «الإسلام السياسية» إن صح التعبير لكي تطعم فيها تلك البرامج والمشاريع فتكون برامجها آنذاك شاملة لما يمكن أن تعالج به الأزمة الفكرية والمشكلة الثقافية ، والإشكالية المعرفية والمنهجية . ويمكن ملاحظة ذلك في بعض مقالات عادل حسين ومحمد يتيم وأنور الجندي .

وتوجه سادس قد يرى في قضية إسلامية المعرفة سلطة إضافية تضاف إلى السلطات الكثيرة التي يتمتع بها المشروع الإسلامي في مواجهة المشروعات الأخرى . ويصلح نموذجاً لذلك كثير من المنتمين إلى حركات سياسيّة ، وكتبوا في هذه القضية مدافعين عنها ، أو منادين بها شعاراً . كما في بعض المؤسسات الإسلاميّة في باكستان خاصة .

لكن التوجه الأهم الذي على عاتقه يقوم عبء التوضيح الدائم لهذه القضية حتى تستوي على سوقها هو التوجه الذي يرى فيها قضية ورؤية منهجية معرفية ، وليست حقلا علميا دراسيا جامدا أو تخصصا أو إيديولوجية ، أو نحلة من النحل أو محاولة استرجاع لتراث أو تمرير لمعاصرة أو تلفيق أو توفيق بينهما ، بل هي محاولة تجديديّة على مستويات المنهج والفكر والمعرفة والثقافة تستهدف وصل ما انقطع من صلات هذه الأمة بكتاب ربها ، والكشف عن منهجية القرآن المعرفية ، وعن منهجية التنزيل لقيمه في الواقع من خلال السنة النبوية ، وكيفية تحريك الواقع باتجاهما لتحقيق غايات الدين في ضوء فقه التدين ، ولذلك فإن أنسب ما يقال فيها : أنها منهج للجمع بين القرائتين : قراءة الوحي وقراءة الكون تنظر للقرآن الكريم على أنه معادل للكون وحركته ، ومستوعب لهما ، فلا تدرك غائيّة الكون ولا الحكمة الكامنة وراء قوانينه وسننه ولا يتحقق عمرانه الحقيقي ، ولا تعالج علاقته بالإنسان وبالغيب إلا بهداية القرآن .

ولا تدرك معالم هذه الهداية ، ومنهجيتها إلا بقراءة القرآن بهداية الكون وفي ضوء سننه وقوانينه واكتشاف التداخل بين سنن الآيات في كل منهما .

فـ «إسلامية المعرفة» ـ إذن ـ لا تتمثل في مقولات ثابتة محددة أو أيديولوجية بحثية أو حركة مذهبية أو اتجاه سياسي بل هي حركة تجدد وتجديد منهجي معرفي تعمل على الكشف عن البناء المتكامل للنظام المعرفي الإسلامي القائم على خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ودعائم الرؤية الإسلامية التوحيدية : كما تحاول أن تفك الارتباط بين الإنجاز العلمي الحضاري البشري والإحالات الفلسفية الوضعية التي قطعت الصلة بين هذا الإنجاز العلمي وبين الله ـ تعالى ـ فإسلامية المعرفة في جانب من جوانبها تعمل على نفي الإلحاد والوضعية عن العلم والنظريات العلمية لتعيد صياغتها ضمن بعدها الكوني المشتمل على غاية الحق من الخلق فيخرج العلم من أزمته ، والمنهج من مأزقه ، ويأخذ كل منهما امتداده المناسب .

تلك هي أهم التوجهات التي يمكن أن يرصدها مراقب دقيق من داخل المدرسة يستطيع أن يمارس عمليات التجريد والتجرد ، حين يقرر دراسة حالة ما ، فينظر من الداخل نظرا فاحصا ، كما يستطيع أن يرصد هذه التوجهات من يتابع بدقة إنتاج المنتسبين للمدرسة المعرفية وطبيعة الحوار الذي يدور في دراساتها وندواتها ومحاضراتها وأطروحاتها .

ولكي نقرر أن هذه الظاهرة ـ أعني ظاهرة العمل في «إسلاميّة المعرفة» ـ ظاهرة صحية أو غير صحية ، وأنها ظاهرة لابد منها أو هي ظاهرة يمكن تحجيمها وتجاوزها ، أو توجيهها وجهة إيجابية ، تحتاج إلى عدد من الأمور والمحددات التي لابد من مراجعتها للوصول إلى إجابة قريبة من الصحة أو الدقة على التساؤلين المذكورين .

المحدد الأول : الأهداف الأساسية لأطروحة أسلمة المعرفة كما برزت في أوراقها الأولى التي عبر عنها مؤتمر لوكانو في سويسرا ، ثم مؤتمر إسلام أباد في باكستان ، ثم كتاب إسلامية المعرفة بطبعته الأولى ثم المطورة ثم الوجيز في إسلامية المعرفة ، وسواها من الأوراق وبمراجعة هذه الأدبيات يمكن الخروج بالقضايا التالية كأهداف أساسية تمثل الأرضية المشتركة بين سائر الاتجاهات داخل المدرسة .

١» معالجة الأزمة الفكرية التي هي أزمة العقل المسلم الأساسية ، وذلك بإعادة بناء المنهجية الإسلامية كما تصورها المنتمون إلى هذه القضية في تلك المراحل ، وكما تبلورت ولا تزال .

٢» العمل على معالجة الواقع المعاصر للأمة الإسلامية في إطاره المنهجي والفكري والثقافي من خلال القضاء على ازدواجية التعليم بين ديني ومدني وسواه ، والذي أدى إلى كثير من السلبيات الإضافية التي شحنت بها الساحة الإسلامية ، وذلك بإيجاد حالة من الجمع بين هداية الوحي ومنتجات العقل الإنساني بترشيد العلوم الاجتماعية وإعادة صياغتها صياغة إسلامية ، بمعنى أن لا ينفرد العقل الإنساني والتجربة الإنسانية وحدها والحس والحدس الإنسانيان بصياغة هذه العلوم ، بل لابد من الرجوع إلى الوحي كمصدر من مصادر صياغتها . كما أن العلوم والمعارف النقلية لابد من إعادة الارتباط بينها وبين العلوم والمعارف الاجتماعية والإنسانية ، لكي تخرج من عزلتها عن الواقع والمجتمع وتسترد فاعليّتها بشكل سليم ، فهذان الأمران يعتبران القاسم المشترك بين سائر المهتمين بهذه القضية ، الحريصين على البحث في إطارها .

البرنامج العملي والخطوات التنفيذيّة:

لقد اتخذ الكتاب المنهجي الجامعي في تلك المرحلة المتقدمة من مراحل العمل في هذه القضية وسيلة أساسية للقضاء على ازدواجية التعليم وإيجاد المادة القادرة على إعادة تشكيل العقل المسلم وبعد أن فتح المعهد أبوابه وبدأ يمارس نشاطه في أنحاء مختلفة وبيئات متنوعة من العالم الإسلامي وغيره ، وبدأت تظهر النتائج الأولية لاستقبال المثقفين المسلمين للقضية وأطروحاتها بدأت محاولات جادة لإنتاج بعض الكتب المنهجية وفقا للخطة الإثني عشرية التي وضعت بادئ الأمر ، لكن تلك المحاولات كلها لم يمكن تحقيقها ولم يولد الكتاب المنهجي الموحد القائم على تحصيل السعادتين والجمع بين الجنتين: جنة التراث وجنة المعاصرة ، بل لقد بدأت بعض التوجهات في داخل المدرسة وخارجها تبدي الكثير من الملاحظات حول هذه الخطوات ، ومدى قدرتها على تحقيق المطلوب ، ولعل من أقوى تلك الملاحظات: أن العمليات الفكريّة على هذا المستوى لا يمكن أن تبلغ مستوى النضج من خلال هذا النوع من المزج والتركيب ، بل إنها تحدث حين تحدث من خلال تفاعل وجدلية تتناول العمليّة التعليميّة في سائر أطرافها يجب أن تأخذ وقتها ، وتحقق شروطها حتى تؤتي أكلها في وقت مناسب .

كما أنّ الانطلاق في ذلك لا يتحقق قبل بناء الأطار النظري وتوضيحه ، وبيان منهجيّته بياناً شافياً ، واختبار تلك المنهجيّة ؛ وتدريب الأطر القادرة على استيعاب الأطار النظري ، وادراك المنهج المنبثق عنه وتطبيقه . ومع أن هناك خطوات جادة كثيرة قد اتخذت في هذا السبيل ، لكن لا تزال عمليّة الاتفاق عليها في حاجة إلى إنضاج ، وذلك أمر لا يقلق البال كثيراً: فالامام الشافعي حين أعد رسالته وقدم فيها المنهج الأصولي المقترح أخذت عدة عقود حتى تكامل الوعي بها وبمضمونها ، لكنّها فرضت نفسها بعد ذلك على الدراسات الأصوليّة ولا تزال حتى يومنا هذا .

ثم عرضت فكرة بناء مداخل للعلوم الاجتماعية والإنسانية والشرعية تقدم في هذه المداخل منهجية إسلامية المعرفة ، ويوضح السبيل إلى كيفية انعكاس تلك المنهجية على كل علم بمفرده من قبل المتخصصين فيه ، الفاقهين لقضية «إسلاميّة المعرفة» لتتاح الفرصة للأساتذة والطلاب لاستيعاب منهجية إسلامية المعرفة والتفاعل معها ، والإنتاج في ذلك التخصص أو العلم على ضوئها . ولم يستطع المعهد لحد الآن أن ينتج شيئا مستوفياً لسائر شروطه من هذه المداخل رغم أن عقودا قد وقعت مع بعض الأساتذة المتخصصين والذين أكدوا قدرتهم على إنتاج هذا النوع من المداخل ، لكن الانتاج الذي قدموه لم يف بالمطلوب فأعيدت المحاولة .

ثم جرت محاولة أخرى أو تجربة ثالثة تتمثل في جمع أساتذة من تخصصات متنوعة ليقوموا بدراسة وتحليل قضايا مشتركة ويتعاونوا على دراستها وتحليلها ،والحوار حولها للخروج بتصورات مشتركة من متخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية والشرعيّة يمكن أن تكون قاعدة انطلاق في تحقيق ذلك التصور ولم تؤت هذه المحاولة الثمار التي كانت مرجوة منها كذلك وإن كانت قد مثلت مع تراكمات المحاولات السابقة خطوة إلى الأمام .

وفي سنة ١٩٨٩ عقد مؤتمر داخليٌ ضم مستشاري المعهد الأكاديميين وجرت فيه مراجعة وحوار لقضايا المدرسة وأطروحتها ، وتمت في هذا اللقاء مناقشة ورقة عمل قدمها كاتب هذه السطور واستغرق الحوار حولها ما يقرب من أسبوع ، واستفاد في تلك الورقة من سائر ما كان قد أنتج من أوراق المعهد ، كما راجع خبراته مع المشاريع المختلفة ، ثم خرج بمجموعة من التصورات والتوجهات التي أكدت على الاستمرار في أهم المحاولات السابقة وفي مقدمتها عملية بناء المداخل للعلوم الاجتماعية والإنسانية والنقلية . وكذلك ما

اعتبرته الورقة من الوسائل والأدوات اللازمة للتدريب على التعامل مع قضية الأسلمة ، لكنها أكدت بصفة خاصة على أن هذه القضية ما لم تركز على المنهجية وتحل إشكاليتها في إطارها فإن التعامل مع مختلف القضايا سوف يظل تعاملا فرعيا لا يمكن أن يؤدي إلى النقلة النوعية . وجرى التوكيد على جملة من المحاور التي يمكن أن تساعد على تحقيق ذلك وفي مقدمتها محاور: الفكر ، المعرفة ، الثقافة ، العمران أو الحضارة ، التاريخ ، وكذلك تم التأكيد على أن من أهم ما يمكن أن يساعد في عملية المراجعة والبناء المنهجي: الدراسات النقدية والتحليلية لمختلف القضايا المتعلقة بالفكر الإسلامي القديم وبالفكر الإنساني المعاصر .

وقد استطاع المعهد أن يقدم أفكارا ناضجة لبناء المداخل - أي مداخل العلوم - وخططا لبناء المقررات ، لكن هذه المداخل وتلك الكتب المنهجية والقراءات المختارة لم تستطع أن تجد سبيلها إلى النور بعد ، لافتقاد الكتّاب والأساتذة القادرين بعدد كاف على تلبية هذه الاحتياجات الملحة في بعض ذلك ، وعدم وجود مخابر الاختبار في بعض آخر ، فكان لابد من استمرار ما كان مع مضاعفة الجهود ولإيجاد البديل وإجراء ما يمكن إجراؤه من تعديلات ولإدخال ما يمكن إدخاله من إضافات على ما هو قائم ، والعمل على بناء حاسة النقد لدى الأستاذ والباحث والطالب من منظور معرفي إسلامي .

إضافة إلى عقد الدورات التدريبيّة للباحثين والأساتذة الجدد للتعامل مع القضايا المعرفيّة: انطلاقاً من منهجيّة «إسلاميّة المعرفة» .

أما على المستوى الآخر ، فقد كانت هناك بعض النتائج التي تمثل استجابة لا بأس بها لتلك التحديات حيث أمكن أن تبلور قضية إسلامية المعرفة كقضية منهجية معرفية في محاور ستة ، قطب رحاها منهجية القرآن المعرفية كما تقدم بيانها وإيضاحها .

هذا ما توصلنا إليه في إطار محاولاتنا لإيقاظ الأمة ومساعدتها على إعادة بناء شخصيتها والخروج من أزمتها ، وتنقية فكرها من تحريفات الغالين ، وتأويلات الجاهلين ، وانتحال المبطلين : وهو - في سائر الأحوال - جهد بشري واجتهاد إن كان صوابا فمن الله - تعالى - وإن كان غير ذلك ففضل الله واسع إذ شمل المجتهد المخطئ برحمته على نصبه وأثابه على اجتهاده وإن أخطأ .